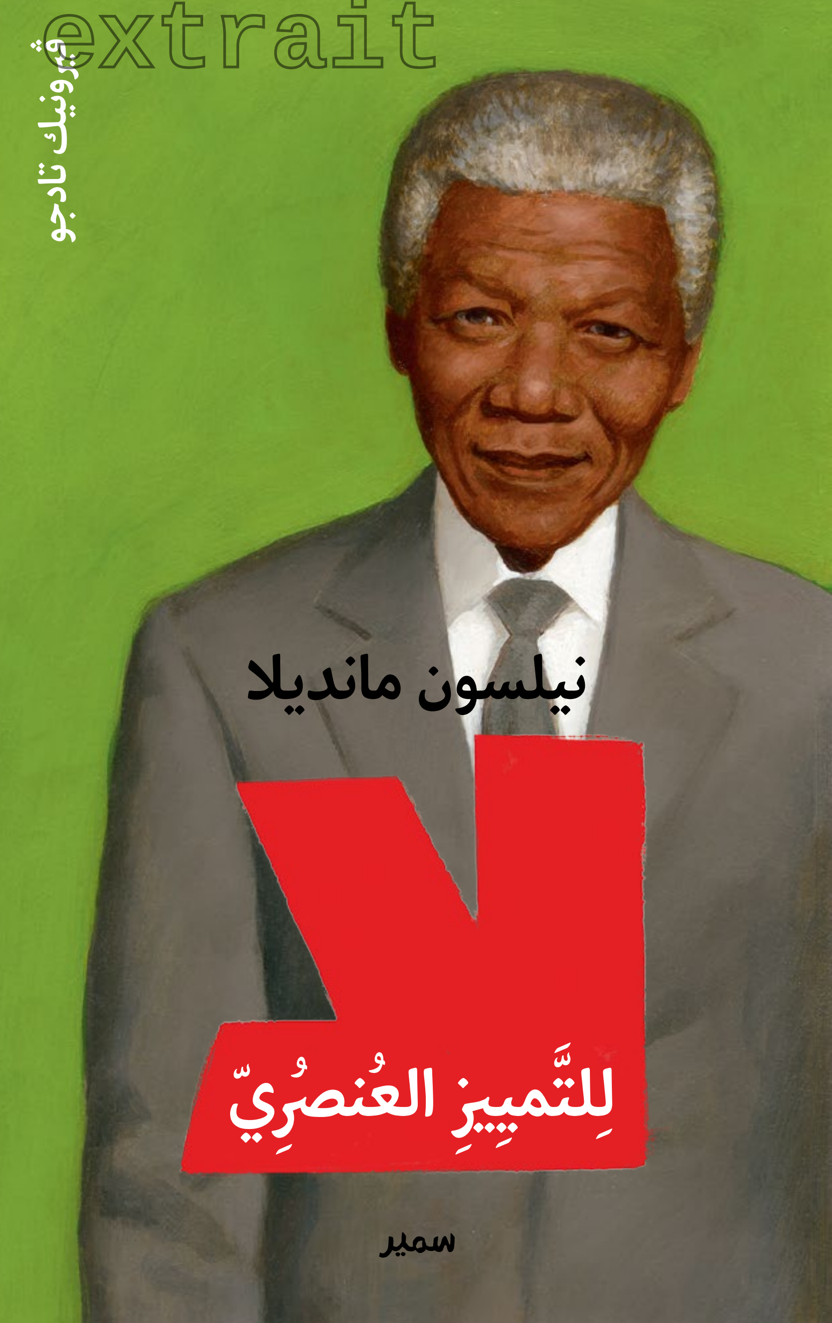
فيرونيك تادجو



نيلسون مانديلا

لا لِلتَّمييزِ العُنصُرِيّ

سمير

نيلسون مانديلا:
«لا لِلتَّمييزِ العُنصُرِيّ»

Nelson Mandela : « Non à l’Apartheid » © Actes Sud, France, 2010
تُرجِم إلى اللّغة العربيّة لدى سمير دار نشر
حقوق التّرجمة © سمير دار نشر 2016
سنّ الفيل الجسر الواطي، ص.ب. 55542، بيروت، لبنان
www.samirediteur.com
ISBN 978-9953-31-863-9

الَّذينَ قالوا لا

فيرونيك تادجو

نيلسون مانديلا

لا لِلتَّمييزِ العُنصُريّ

سمير

١

حَزيران (يونيو) 1941

«لِغَيرِ البيضِ»

يَنزِلُ جَميعُ المُسافِرينَ السّودِ مِنَ القِطارِ عَلى الرَّصيفِ المُخَصَّصِ لَهُم في المَحَطَّةِ. عَلى بُعدِ أَمتارٍ مِن هُنا، تُجبِرُهُم لافِتَةٌ كُتِبَ عَلَيها «مَخرَجٌ لِغَيرِ البيضِ»، عَلى سُلوكِ مَمَرٍّ مُعتِمٍ في الجِهَةِ اليُسرى، بَينَما يُتابِعُ البيضُ طَريقَهُم مُباشَرَةً نَحوَ المَخرَجِ الرَّئيسِيِّ، الواسِعِ وَالمُضاءِ.

المَدينَةُ غَنِيَّةٌ، تَلتَمِعُ فيها آلافُ الأَضواءِ، وَلكِنَّ بَريقَها مُصطَنَعٌ. وَعَلى الرَّغمِ مِن ذلِكَ، لَم أَستَطِعْ أَن أَمنَعَ نَفسي مِنَ الإعجابِ بِالأَبنِيَةِ البالِغَةِ الِارتِفاعِ إلى حَدٍّ أَنَّ قِمَمَها غَيرُ مَرئِيَّةٍ. أَمّا السَّيّاراتُ، فَلَم أَرَها يَومًا بِهذا العَدَدِ. تَعُجُّ المَدينَةُ بِالنَّشاطاتِ وَالأَصواتِ وَالحَرَكَةِ، وَلكِنَّ هذا كُلَّهُ لَيسَ لَنا. نَحنُ السّودَ. لا يَحِقُّ لَنا أَن نَتَواجَدَ هُنا.

لَدى دُخولي هذِهِ المَنطِقَةَ المُعادِيَةَ، أَرفَعُ قَبَّةَ مِعطَفي البالي. أُريدُ أَن أَستُرَ وَجهي، أَن أَبقى مُتَخَفِّيًا قَدرَ الإمكانِ، بِطَريقَةٍ لا تَلفِتُ الِانتِباهَ. غَيرَ أَنَّني مَسرورٌ لِمَجيئي إلى جوهانِّسبُرج، فَهيَ المَكانُ حَيثُ نَبضُ جَنوبِ أَفريقِيا، وحَيثُ تُشَنُّ كُلُّ المَعارِكِ وَتَتَصادَمُ الرَّغَباتُ وَتَتَحَطَّمُ الآمالُ. لا يوجَدُ في أَيِّ مَكانٍ آخَرَ مِن بَلَدي القاسي جِدًّا وَالجَميلِ جِدًّا، هذا التَّنَوُّعُ في أَلوانِ البَشَرَةِ. لِلأَسَفِ، يُحَدَّدُ قَدَرُ كُلٍّ مِنّا وَفقًا لِلَونِ بَشَرَتِهِ وَانتِمائِهِ العِرقِيِّ. لَيسَ هُناكَ حَلٌّ وَسَطٌ. مِنَ المُستَحيلِ الإفلاتُ مِنَ التَّمييزِ العُنصُرِيِّ الَّذي يُقَسِّمُنا.

قَبلَ حَوالى مِئَةِ سَنَةٍ، جاءَ مُغامِرونَ مِن بِقاعِ الأَرضِ كُلِّها ، يَبحَثونَ عَنِ الثَّروَةِ في الذَّهَبِ وَالماسِ، فَحَفَرَ الرِّجالُ مَناجِمَ عَميقَةً لِيَستَخرِجوا مِنها المَعادِنَ الثَّمينَةَ الَّتي جادَت بِها الطَّبيعَةُ عَلى هذِهِ الأَرضِ.

وُلِدَت جوهانِّسبُرج مِن هذا الفَيضِ، مِن هذِهِ الرَّغبَةِ الجامِحَةِ في الغِنى. لا يَعبُرُ أَيُّ نَهرٍ هذِهِ المَدينَةَ الفولاذِيَّةَ، وَلا يُبَلِّلُ أَيُّ جَدوَلٍ جَفافَ أَديمِها ، وَلا تُزَيِّنُ أَيَّةُ بُحَيرَةٍ وَجهَها. صَنَعَت أَيدي البَشَرِ كُلَّ ما فيها: السُّدودَ، خَزّاناتِ المِياهِ وَاليَنابيعَ. وَاستَورَدَ أولئِكَ الرّاغِبونَ في الِاستِقرارِ فيها بِأَيِّ ثَمَنٍ، مُعظَمَ الأَشجارِ وَغَرسوها. وَجَبَ مَلءُ الفَراغِ بِالحَياةِ، لِكَي تَستَمِرَّ المَناجِمُ بِالعَمَلِ وَاليَدُ العامِلَةُ بِالتَّوافُدِ. بِالنِّسبَةِ لي، إنَّ أَشجارَ الجَكَرَنْدا المُزهِرَةَ الَّتي تُغَطّي الأَرصِفَةَ بِبِساطٍ بَنَفسَجِيٍّ ناعِمٍ، هِيَ الَّتي تَبعَثُ عَلى المَدينَةِ شَيئًا مِنَ الشّاعِرِيَّةِ. وَبَينَ التَّحَدّي وَالطَّمَعِ، كَسبِ المالِ وَادِّخارِهِ، حَتمًا ، رَبِحَ الأَقوِياءُ.

أَشعُرُ بِالتَّعَبِ يَجتاحُني وَبِأَلَمٍ في الظَّهرِ، فَالرِّحلَةُ طَويلَةٌ وَغَيرُ مُريحَةٍ، وَمَقطورَتي مُمتَلِئَةٌ، وَأَنا

مَحصورٌ عَلى مَقعَدي وَأَكادُ لا أَتَمَكَّنُ مِن تَحريكِ قَدَمَيَّ. المَمَرُّ الرَّئيسِيُّ يَعُجُّ بِمُسافِرينَ يَجلِسونَ عَلى حَقائِبِهِم طَوالَ الرِّحلَةِ. وَفي مُقَدَّمَةِ القِطارِ، هُنالِكَ، لِجِهَةِ البيضِ، عَدَدٌ وافِرٌ مِنَ المَقاعِدِ الخالِيَةِ. أَوَدُّ لَو أَستَريحُ قَليلًا في حَديقَةٍ، وَلكِن، في كُلِّ مَكانٍ، تَجعَلُني التَّعليماتُ نَفسُها أَتَراجَعُ:

«**المَقاعِدُ مَحجوزَةٌ لِلبيضِ**».

دَسَسْتُ يَدي في الجَيبِ الدّاخِلِيِّ لِمِعطَفي، لِلتَّأَكُّدِ مِن أَنَّ قُصاصَةَ الوَرَقِ الَّتي تَحمِلُ عُنوانَ عَمّي ما زالَت في مَكانِها. دَلَّني رَجُلٌ إلى مَحَطَّةِ النَّقلِ حَيثُ أَستَطيعُ أَن أَستَقِلَّ سَيّارَةَ أُجرَةٍ إلى سُويتو. إستَعجَلْتُ الوُصولَ إلى المَكانِ المَقصودِ، فَبِدونِ إذنِ مُرورٍ، أَتَعَرَّضُ لِلسَّجنِ، إذا أُوقِفْتُ. طَوالَ إقامَتي في إقليمِ تْرانسْكي، لَم أَكُنْ في حاجَةٍ إلى مِثلِ هذا الإذنِ، وَلكِنَّ وُجودي الآنَ في جوهانِّسبُرج، يُحَتِّمُ عَلَيَّ أَن أَختَبِئَ كَاللِّصِّ.

سارَ كُلُّ شَيءٍ بِسُرعَةٍ. بَعدَ الإضرابِ في الثّانَوِيَّةِ، كانَ عَلَيَّ أَن أَنجُوَ بِنَفسي. «مانديلا هذا قائِدٌ خَطيرٌ»،

أَكَّدَ مُديرُنا لِرِجالِ الشُّرطَةِ الَّذينَ أَتَوا لِإعادَةِ الأَمنِ إلى مُؤَسَّسَتِهِ. يَجتاحُني الغَضَبُ عِندَما أُفَكِّرُ في هذا القَدرِ مِنَ الظُّلمِ. لَم نَكُنْ نُطالِبُ بِسِوى مُتابَعَةِ دِراسَتِنا في شُروطٍ أَفضَلَ. لِمَ قاعاتُ الدَّرسِ الخَرِبَةُ تِلكَ، وَتِلكَ الكُتُبُ المُهتَرِئَةُ، وَذلِكَ الأَكلُ الرَّديءُ وَخُصوصًا، خُصوصًا، لِمَ تِلكَ المُلاحَظاتُ يَرمينا بِها الأَساتِذَةُ البيضُ بِاحتِقارٍ بِاعتِبارِنا في جَميعِ الأَحوالِ، غَيرَ مُؤَهَّلينَ إلّا لِلأَعمالِ الوَضيعَةِ؟ لَم يَعُدْ هذا مُحتَمَلًا. وَفي حَقيقَةِ الأَمرِ، لَم أَفعَلْ سِوى اتِّباعِ نَصيحَةِ الوالِدِ الَّذي كانَ دائِمًا يَقولُ لي: «ثِقْ بِنَفسِكَ يا وَلَدي. سَيَأتي يَومُنا». لِماذا استَعجَلَ تَركي يَتيمًا؟

ماتَ چادْلا، بِسَبَبِ سُعالٍ حادٍّ، وَأَنا طِفلٌ. كانَ المُستَشفى بَعيدًا جِدًّا، وَكانَت أُمّي تَبكي بِصَمتٍ بَينَما تَختَرِقُ نَوباتُ السُّعالِ اللَّيلَ. رَحَلَ چادْلا باكِرًا جِدًّا، تارِكًا إيّانا، نَحنُ الِاثنَينِ في عالَمٍ قاسٍ. لا بُدَّ مِن أَنَّ أُمّي قَد قَلِقَت عَلَيَّ. كانَ وَداعُنا مُختَصَرًا. أَعطَتني مالًا قَليلًا كانَت قَدِ ادَّخَرَتهُ، وَناوَلَتني عُنوانًا عَلى قُصاصَةِ وَرَقٍ قائِلَةً: «إذهَبْ إلى جوهانِّسبُرچ

وَاحتَمِ عِندَ عَمِّكَ. سَوفَ يَكونُ بِإمكانِكَ بَدءُ حَياتِكَ مِن جَديدٍ. حَماكَ أَجدادُكَ».

يَجتاحُني الغَضَبُ عِندَما أُفَكِّرُ في هذا القَدرِ مِنَ الظُّلمِ: لِلأَولادِ البيضِ الحَقُّ في تَعليمٍ رَفيعِ المُستَوى، وَفي أَساتِذَةٍ ذَوي كَفاءَةٍ، وَفي جَميعِ الكُتُبِ الَّتي يَحتاجونَ إلَيها، في حينِ أَنَّ الأَولادَ السّودَ يُقيمونَ في أَبنِيَةٍ خَرِبَةٍ، وَفي صُفوفٍ يَضُمُّ كُلٌّ مِنها سِتّينِ تِلميذًا عَلى مَقاعِدَ مُتَخَلخِلَةٍ. لا أَدري إن كانَ عَلَيَّ أَن أَضحَكَ أَو أَبكِيَ عِندَما أَستَرجِعُ يَومِيَ الأَوَّلَ في المَدرَسَةِ. فَتَحَ چادْلا صُندوقَ مَلابِسِهِ الكَبيرَ - وَكانَ تَحتَ السَّريرِ - فَفَتَّشَ بِعِنايَةٍ في الثِّيابِ المَطوِيَّةِ الَّتي تَفوحُ مِنها رائِحَةُ النَّفتالينِ، وَأَخرَجَ بَنطَلونًا أَسوَدَ، ثُمَّ، وَمِن دونِ تَرَدُّدٍ، تَناوَلَ المِقَصَّ وَقَصَّهُ عَلى مُستَوى الرُّكبَتَينِ. وَعِندَما ناوَلَني إيّاهُ لَبِسْتُهُ مُفتَخِرًا. فَقيرٌ ابنُ فَقيرٍ! غَيرَ أَنَّ البَنطَلونَ تَجاوَزَ رُكبَتَيَّ، فَانفَجَرَ والِدي ضاحِكًا، وَضَحِكْتُ مَعَهُ. ثُمَّ وَضَعَ حَولَ خَصري حَبلًا مِن جِلدٍ كَحِزامٍ. وَخاطَت لي أُمّي قَميصًا لَبِسْتُهُ طَوالَ السَّنَةِ. كانَت تَغسِلُهُ لَدى عَودَتي ثُمَّ تُجَفِّفُهُ. وَحِذائي؟

لَقَد تَمَّ شِراؤُهُ مُستَعمَلًا مِنَ السّوقِ. إستَغنَيْتُ إذًا عَنِ الغِطاءِ الَّذي كُنْتُ أَلُفُّ بِهِ كَتِفَيَّ كَجَميعِ أَطفالِ القَريَةِ الآخَرينَ. لَم نَكُنْ في حاجَةٍ إلى أَيِّ شَيءٍ آخَرَ، وَكُنّا تَحتَهُ عُراةً كَالدّيدانِ. أَذكُرُ أَيضًا أَنَّ قَلبي امتَلَأَ أَمَلًا عِندَما وَقَفْتُ في الصَّفِّ لِدُخولِ قاعَةِ الدِّراسَةِ، وَأَنَّ ذَهابي إلى المَدرَسَةِ أَسعَد قَلبَ چادْلا لِلغايَةِ، حَتّى إنَّ وَجهَهُ كانَ يَشِعُّ كُلَّما رَآني ذاهِبًا في الصَّباحِ. أَرادَ لي حَياةً أُخرى، أَتَجاوَزُ مَعَها حُدودَ قَريَتِنا. وَفي نِهايَةِ العامِ المَدرَسِيِّ، تَبَختَرَ حامِلًا دَفتَرَ عَلاماتي وَكَأَنَّهُ كَأسُ النَّصرِ. كانَ يُشَجِّعُ أَصدِقاءَهُ عَلى إرسالِ أَولادِهِم أَيضًا إلى المَدرَسَةِ قائِلًا: «عَلَينا أَن نُواكِبَ التَّغييرَ. إذا تَعَلَّمَ أَولادُنا القِراءَةَ وَالكِتابَةَ، فَسَيَتَمَكَّنونَ مِنَ الدِّفاعِ عَنّا. أَلَم يَقُلِ الأَسلافُ: «عَلَيكَ أَن تَعرِفَ لُغَةَ عَدُوِّكَ إذا أَرَدْتَ الرَّدَّ عَلَيهِ»؟ بِالنِّسبَةِ إلَيهِ، المَدرَسَةُ استِثمارٌ، رِهانٌ عَلى المُستَقبَلِ. وَكانَ مُستَعِدًّا لِتَقديمِ كُلِّ التَّضحِياتِ الضَّرورِيَّةِ لِكَي أَنجَحَ. أُمّي، أَتَذَكَّرُ خَوفَكِ مِن أَن تُغَيِّرَني الدِّراسَةُ، مِن أَن أَتَخَلّى شَيئًا فَشَيئًا عَن جُذوري. لَقَد شَغَلَ بالَكِ اليَومُ الَّذي سَأُضطَرُّ فيهِ إلى

مُغادَرَةِ القَريَةِ، وَما كُنْتِ تَحتَمِلينَ مُجَرَّدَ التَّفكيرِ في أَنَّني قَد أَنسى ثَقافَتي. أَبي، جُهودُكَ لَن تَذهَبَ سُدًى، أَعِدُكَ بِذلِكَ. أُمّي، مَخاوِفُكِ لَن تَتَحَقَّقَ أَبَدًا، أَعِدُكِ بِذلِكَ. لِأَجلِكُما سَأُناضِلُ. لَن أَترُكَ مُطلَقًا قَريَتَنا الواقِعَةَ عَلى ضِفَّةِ النَّهرِ الكَبيرِ الَّذي يَشُقُّ طَريقًا في الوادي الشّاسِعِ. ما أَجمَلَ غُروبَ الشَّمسِ مِن أَعالي القِمَمِ! سَوفَ أَتَذَكَّرُ دائِمًا زَمَنَ الأَجدادِ، عِندَما تَصطَبِغُ الشَّمسُ بِاللَّونِ القِرميدِيِّ فَيُلاقي الأَمواتُ الأَحياءَ وَيُخالِطونَهُم. إِنَّها لَحظَةٌ مِنَ السَّكينَةِ العَميقَةِ.

يَجتاحُني الغَضَبُ عِندَما أُفَكِّرُ بِهذا القَدرِ مِنَ الظُّلمِ: بيضٌ، سودٌ، خِلاسِيّونَ، آسيَوِيّونَ وَهُنودٌ، لِماذا نَعيشُ مُنقَسِمينَ، كُلٌّ في جِهَتِهِ، وَخاضِعينَ لِقَوانينَ مُختَلِفَةٍ لا تُساوي بَينَنا؟ لا أَقبَلُ هذا الواقِعَ. كَلّا، لَن أَتَواطَأَ مَعَ نِظامٍ حَقيرٍ إِلى هذا الحَدِّ. لا يَحِقُّ لِأَحَدٍ أَن يَمنَعَني مِنَ العَيشِ كَما أُريدُ. لا يَحِقُّ لِأَحَدٍ أَن يَفرِضَ عَلَيَّ تَعليمًا مَنقوصًا، وَمِهنَةً مُذِلَّةً. لِماذا لا يَتَمَتَّعُ السّودُ بِحَقِّ الِاقتِراعِ؟ سَأُناضِلُ ضِدَّ كُلِّ ذلِكَ، وَهُنا، في جوهانِّسبُرج، سَأَقومُ بِذلِكَ.

إسمي هُوَ روليهلاهلا، أَي مَن كَسَرَ غُصنَ الشَّجَرَةِ، وَمَن يوقِعُ الآخَرينَ في وَرطَةٍ. أَنتَمي إلى السُّلالَةِ المَلَكِيَّةِ لِعَشيرَةِ ماديبا. أَنا سَليلُ زَعيمِ ثِمْبو وَفِكري غَنِيٌّ بِحِكمَةِ أَسلافي. لَم يَكُنْ والِدي ثَرِيًّا، بِالرُّغمِ مِن لَقَبِهِ، وَلكِنَّهُ رَبّاني كَمُحارِبٍ. لَقَد زَوَّدَني بِأَسلِحَةِ الشَّجاعَةِ. أَشعُرُ بِأَنَّني قادِرٌ عَلى مُواجَهَةِ الخَوفِ، قادِرٌ عَلى الحُلمِ. وَأَحمِلُ أَيضًا الِاسمَ الشَّهيرَ لِجَدّي، مانديلا. لَن أَخونَ ذِكرى أَسلافي. وَفَضلًا عَن ذلِكَ، أَحمِلُ اسمًا إنكليزِيًّا، نيلسون، كَالأَميرالِ نيلسون، البَطَلِ العَسكَرِيِّ الكَبيرِ. كَيفَ كَسِبْتُهُ؟ في المَدرَسَةِ الميثودِيَّةِ. لَم يَكُنْ في استِطاعَةِ الرّاهِباتِ التَّلَفُّظُ بِاسمي الحَقيقِيِّ بِاللُّغَةِ الخوسِيَّةِ[1]. بِصَرفِ النَّظَرِ عَن ذلِكَ، أَصبَحَ اسمي إذًا نيلسون روليهلاهلا مانديلا، وَمِن هذِهِ الأَسماءِ الثَّلاثَةِ سَوفَ أَستَمِدُّ قُوَّتي!

---

1) اللُّغَةُ الَّتي يَتَكَلَّمُها الخوسيّونَ الَّذينَ يُشَكِّلونَ حَوالى 20 % مِن سُكّانِ جَنوبِ أَفريقيا، ما يَجعَلُها اللُّغَةَ الثّانِيَةَ بَعدَ الزّولُوِيَّةِ. وَيوجَدُ أَيضًا الأَفريقانِيَّةُ، الإنكليزِيَّةُ، النّديبيلِيَّةُ، وَالسّوتو الشَّمالِيَّةُ، وَالسّوتو، وَالسّوازِيَّةُ، وَالتّسونغا، وَالتّسوانِيَّةُ وَالفَندا.

طُبِع هذا الكتاب لدى مطابع دار الكتب-دوتس في بيروت،
في كانون الثّاني (يناير) 2016

الَّذينَ قالوا لا

رِوايـاتٌ تـاريخِـيّـة

لَدى دُخولي هذِهِ المَنطِقَةَ المُعادِيَة، أَرفَعُ قَبَّةَ مِعطَفي البالي. أُريدُ أَن أَستُرَ وَجهي، أَن أَبقى مُتَخَفِّيًا قَدرَ الإمكانِ. غَيرَ أَنَّني مَسرورٌ لِمَجيئي إلى جوهانِّسبُرج، فَهِيَ المَكانُ حَيثُ تُشَنُّ كُلُّ المَعارِكِ وَتَتَصادَمُ الرَّغَباتُ وَتَتَحَطَّمُ الآمالُ. لا يوجَدُ في أَيِّ مَكانٍ آخَرَ مِن بَلَدي القاسي جِدًّا وَالجَميلِ جِدًّا، هذا التَّنَوُّعُ في أَلوانِ البَشَرَةِ. لِلأَسَفِ، يُحَدَّدُ قَدَرُ كُلٍّ مِنّا وَفقًا لِلَونِ بَشَرَتِهِ وَانتِمائِهِ العِرقِيِّ.

لَيسَ هُناكَ حَلٌّ وَسَطٌ. مِنَ المُستَحيلِ الإفلاتُ مِنَ التَّمييزِ العُنصُرِيِّ الَّذي يُقَسِّمُنا.

www.samirediteur.com

ISBN 978-9953-31-863-9

9 789953 318639